التشكيل البديعي في شعر عبد الغني النابلسي

أ.د وفيق محمود سليطين /جامعة تشرين

أ. ناريمان ريان عبد المجيد جلول/ جامعة تشرين

ملخص:

يعدّ عبد الغني النابلسي شاعر التصوف في العصر العثماني، وشعره ذو طابع عقدي فلسفي، تجلّى في التعبير عن وحدة الوجود. ولذا يسعى هذا البحث إلى رصد وسائل التشكيل البديعي في شعره، بغية الكشف عن العلاقة بين الجانبين الفكري والفني في تجربته الجامعة بين الشعر والتصوف.

وقد اتّضح أنّ التشكيل البديعي في شعر النابلسي، كان له أثره في إرساء الطابع العقدي وترسيخه من جهة، وفي إضفاء سمة فنية بلاغية وإيقاعية من جهة أخرى.

وبناء على ذلك، اتّخذت تلك التشكيلات في شعره منحى توظيفياً، تبدّى في استجابة الشاعر لعقيدته من جانب، وفي انقياد الجانب الفني للفكري وخضوعه له من جانب آخر.

الكلمات المفتاحية: التشكيل البديعي، الشعر الصوفي، عبد الغني النابلسي.

Abstract :

Abdelghani Nabulsii is the poet of Sufism in the Othmanii era,and his poetry is a philosophical trait and ideological ,manifested in the expression of pantheism. So, This research seeks to the synthesis of Al- badiīʿ techniques in his poetry ,in order to detect the relationship between the intellectual and artistic aspects in his overall experience between poetry and sufism.

It was found that the synthesis of Al- badiīʿ techniques in the poetry of Nabulsii had an effect on the creation and consolidation of the ideological trait on the one hand, and added to it a rhetorical and rhythmic feature on the other hand.

Keywords:The synthesis of Al-badiīʿ,Sufism, Abdul -Ghani Al-Nabulsii.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

المقدمة:

يعدّ عبد الغني النابلسي* (1143هـ)شاعر التصوف في العصر العثماني؛ فقد فاق شعراء عصره في التعبير عن تجربته الصوفية التي اتّخذت منحى عقدياً فلسفياً؛ وكان من أشهر أتباع ابن عربي (638هـ)، ومن أبرز المدافعين عن مذهب وحدة الوجود.** وله ديوانه المسمّى (ديوان الحقائق ومجموع الرقائق)، وهو ديوان يطوي مادة غزيرة تجمع بين العقيدة الصوفية ومعالم الفنّ الشعري. ولذا يسعى هذا البحث إلى رصد ألوان التشكيل البديعي في هذا الديوان، بغية الكشف عن العلاقة بين الجانبين الفكري والفني في تجربة النابلسي الجامعة بين الشعر والتصوف.

المناقشة:

يمكن رصد الفنون البديعية في شعر النابلسي من ناحيتين؛ التشكيل البديعي وأثره في التعبير عن المضمون العقدي من جانب، والتشكيل البديعي وأثره في إضفاء سمة فنية بلاغية وإيقاعية من جانب آخر.

1. التشكيل البديعي والمضمون العقدي:

لقد كانت عقيدة النابلسي التعبير عن وحدة الوجود التي تضايف بين الموجودات، وتسعى إلى تحقيق التناسب بينها، بغية إيجاد الوحدة في عالم تسوده المتناقضات، ومن ثمّ وجد النابلسي في **التضاد*****ملاذاً للتعبير عنها، ولاسيّما أنّ البلاغيين درسوا التضاد ضمن دائرة التناسب بين المعاني، وأطلقوا عليه المطابقة، والتكافؤ [1]، وهي تؤدّي دلالة المناسبة أيضاً. يقول النابلسي[2]:[الخفيف]

لَيسَ يَنْعَدُّ حَادثٌ مَعْ قَديمٍ بَاطِلٌ مَعْ حَقٍّ وَعَالٍ وَدُونُ

تتأسّس وحدة الوجود على المقابلة بين الحق والخلق، وبناء على ذلك، يقابل النابلسي بين ثلاث ضدّيات في هذا البيت، تبدّت في مقابلة القديم بالحادث، والحق بالباطل، والعالي بالدوني.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

وغاية الشاعر إثبات الاثنينية بين الخالق والمخلوق لتتميّز، وفقاً لذلك، وحدة الوجود من الوحدة المطلقة****؛ إذ إنّ الأولى تقرّ بالممكنات، ولكنّ الثانية تلغيها. وتتوضّح وحدة الوجود أيضاً بالجمع بين الظاهر والباطن، وقد أشار النابلسي إلى هذه الثنائية في قوله [3]:[الطويل]

فَيَا ظَاهِراً في خَلْقِهِ وَهْوَ بَاطِنٌ وَيَا بَاطِنَاً في أَمْرِهِ وَهْوَ ظَاهِرُ

تتقابل هنا دلالتا الظاهر والباطن في شهود النابلسي، ويتحقّق التناسب بينهما، تصديقاً لقوله تعالى: **﴿هو الأوّلُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ﴾**(الحديد:3). ويتّضح ذلك عن طريق إثبات الشيء تارة، ونفيه تارة أخرى، ليكون ثمّة تناسب بين التضاد (الطباق السلبي) ووحدة الوجود، ويتبدّى ذلك أكثر في قول النابلسي[4]:[الخفيف]

هُوَ هَذا نَعَمْ وَمَا هُوَ هَذا وَالتَّجَلِّي لَهُ بِهِ تَلْوِينُ

وقوله أيضاً بلغة رمزية[5]:[الطويل]

وبانَتْ وما بانَتْ فلا شيءَ غيرها سوى أنّنا عنها بروقٌ لوامعُ

ويتأتّى هذا التضاد غالباً في التعبير عن حالة شهودية، جعلت الشاعر يجمع بين الإثبات والنفي، ولاسيّما أنّ القول بوحدة الوجود يستلزم إثبات الشيء تارة، ونفيه تارة أخرى. ويتمّ تفسير ذلك عن طريق التمييز بين الذات الإلهية وصفاتها؛ فيكون إثبات التجلي متعلقاً بالصفات، وما في ذلك من تشبيه، أمّا نفيه فهو متعلق بالذات، وما يخصّها من تنزيه، وأساس ذلك الجمع بين الظاهر والباطن في آنٍ معاً.

ولما كانت التجربة الصوفية تتوجّه إلى العناية بالقلب، كان الجسد مقابلاً له؛ وكما أنّ الجسد الظاهر يحتاج إلى تطهير من الأدران والأمراض، فكذلك القلب الباطن يحتاج إلى تنقيته من أدواء النفوس، يقول النابلسي[6]: [الوافر]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

تُطبّبُ جسْمَكَ الفَاني لِيَبْقَى وَتَتْرُكُ قَلْبَكَ البَاقي مَريضَا

تتبدّى في هذا البيت نبرة اللوم والعتاب في توجيه العناية إلى الجسد الفاني، مقابل إهمال القلب الباقي، لتتقابل وفقاً لذلك مفردات الشطرين، على الترتيب، تقابلاً ضدياً، يعكس المفارقة بين التجربة الصوفية وتطلّعها الروحي، والتجربة الإنسانية وانقيادها للحسّي واستسلامها له. وبذلك فإنّ للتضاد أثره في الكشف عن عقيدة النابلسي، ولاسيّما الثنائيات الضدية التي تتّخذ علاقة جدلية مع وحدة الوجود، ليتجاوز التضاد وصفه فنّاً بديعيّاً، ويغدو مكوّناً أساسيّاً من مكوّنات المضمون العقدي.

وليس **الاقتباس** من القرآن الكريم أو الحديث الشريف[7]، في شعر النابلسي إلّا دعماً للجانب العقدي ورفداً له. وقد اتّخذ الاقتباس من القرآن الكريم ثلاثة جوانب في شعره؛ الجانب الأول: عقدي فكري أراد منه دعم مذهبه في وحدة الوجود بخاصة، ومثاله قوله[8]: [الخفيف]

واستَمِعْ أينَمَا تَولُّوا فَثَمَّ الـ ـوَجْهُ وَالوَجْهُ ذاتُه يا مَعَاني

وكَذا قَولُ ربّنَا كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَاني

فالاقتباس واضح من الآيات القرآنية:﴿ **فأينما تُولُّوا فثمَّ وجْهُ الله** ﴾(البقرة: 115)، وكذلك ﴿..**كلُّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهَه..**﴾(القصص: 88)، و﴿**كُلُّ مَنْعَليها فَانٍ، وَيَبقَى وَجْهُ رَبّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرَامِ**﴾(الرحمن: 26، 27)، وكثيراً ما يستمسك أنصار وحدة الوجود بهذه الآيات، بغية ردّ مذهبهم إلى الحاضنة الشرعيّة من جهة، والتوفيق بين الشريعة والحقيقة من جهة أخرى.

والجانب الثاني: إرشادي وعظي، بدا فيه النابلسي معلّماً وعارفاً يُقتدى به، ومن ذلك قوله[9]:[البسيط]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

فَإنْ بَدَتْ لكَ مِنْ فَيضِ الإلهِ هُنَا فاسجُدْ لِمَولاكَ في دُنياكَ واقتَرِبِ

فثمّة اقتباس من قوله تعالى:**﴿كلّا لا تُطعْه واسجدْ واقتربْ﴾** (العلق: 19) أفاد منه النابلسي في هذا البيت؛ إذ ينطوي على نزعة تعليمية واضحة، فيكون لزاماً على الشاعر النهل من القرآن الكريم على أنّه المعلّم الأول، وذلك لتعميق فاعلية التخاطب، ابتغاء التأثير في المتلقي (المريد).

أمّا الجانب الثالث، فهو تصويري فنّي، ويندرج فيه قوله[10]: [الطويل]

وما ظاهرٌ إلّا الوجودُ بكُلّهِمْ مقامٌ يُسمَّى قَابَ قَوسينِ أو أدنى

وكذلك قوله[11]:[الخفيف]

وَردةٌ كـالـدِّهـانِ ذاتُ بُطونٍ وَظُهُورٌ معَ الأصُولِ الفُروعِ

فاقتبس من قوله تعالى: **﴿فَكَان قابَ قوسين أو أدنى﴾**(النجم: 9) وقوله: **﴿فإذا انشقّتِ السّماءُ فكانتْ وَردةً كالدِّهان﴾** (الرحمن: 37) ويتجلّى هذا الجانب في اقتباس الصور البلاغية الواردة في القرآن الكريم، والاستعانة بها في إيصال المعنى، ليكون هذا الجانب دعماً للجانب العقدي أيضاً.

ويبقى القرآن الكريم هو الملاذ الأول للشعراء الصوفيين، على حين أنّ الحديث الشريف هو الملاذ الثاني، ويوضح النابلسي ذلك قائلاً [12]:[الخفيف]

أصدقُ الشّعْرِ قُلْ ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ قولُ صوفي
خُذْ بطِبْقِ الكتـابِ والسُّنّـةِ الغـرَّاءِ واتّـبعْ إجْـمَـاعَ تلـكَ الأُلُـوفِ

فثمّة اقتباس من الخبر النبوي الصحيح المروي عن أبي هريرةعن النبي أنّه قال: "أصدقُ بيتٍ قالَهُ الشاعرُ: ألا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلا الله باطلُ."[13] ويستدعي هذا الخبر ثنائيتي الحق/ والباطل،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

والوجود/ والعدم، ولذا اعتمده أنصار وحدة الوجود في إثبات أنّ " الحق هو الوجود، والخلق هو العدم... والممكن وإن كان موجوداً، فهو في حكم المعدوم."[14] ويمكن توضيح كيفية توظيف النصّ المقدّس في شعر النابلسي عن طريق الجدول الآتي:

جدول رقم (1) يبيّن توظيف النصّ المقدّس في شعر النابلسي:

النص المقدس	توظيف النابلسي	
	منحى مباشر/وصفي	منحى تحويلي/ تأويلي
﴿فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾	+	×
﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾	×	+
(أصدقُ بيت قاله الشاعرُ: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ)	+	×

ومن ثمّ يتضح أنّ حضور النص القرآني في شعر النابلسي اتّخذ منحيين؛ مباشراً وتحويلياً. واستناداً إلى ذلك، تبدّى الحديث الشريف في المنحى الأول الذي غلب عليه الطابع الوصفي والتعليمي، على حين انفرد النص القرآني بالمنحى الثاني؛ إذ ظهرت براعة النابلسي في إضفاء طابع

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

تخييلي تبدّى في شعرية الفكر عن طريق البناء التأويلي. ويُستنتج من ذلك أنّ حضور الحديث الشريف كان حضوراً مغلقاً، لا يتجاوز المعنى الظاهر له، وقد استلهمه النابلسي بوصفه دليلاً نقلياً في إثبات وحدة الوجود من جهة، وموجّهاً تعليمياً وإرشادياً غايته التأثير في المتلقي من جهة أخرى. وسواء أكان استلهام النص المقدّس مباشراً أم تخييلياً، فإنّه اقتباس دعت إليه خصوصية التجربة في انتقاء نصوص بعينها، استجابة للمضمون العقدي، فكان لها أثرها في توضيح عقيدة الشاعر ورفدها من جانب، وعدّها دليلاً نقلياً يحقق التوافق بين الشريعة والحقيقة من جانب آخر.

ويتبدّى المنحى التحويلي أيضاً في **التضمين**[15]، ولاسيّما عندما يضمّن النابلسي كثيراً من الشعر القديم، محاولاً أن يضفي عليه مسحة صوفية. وله من ذلك قوله[16]: [الطويل]

ومَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ يَسْخُ بمَهْرِهَا وطَالِبُ شَـهْدٍ لَـمْ تُخِفْـهُا لـلّـواسِـعُ

واضح أنّ هذا البيت يستدعي البيت المشهور لأبي فراس الحمداني، وهو قوله[17]:[الطويل]

تَـهُونُ عَلَينَا في الـمَـعَالي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الحَسْنَاءَ لَمْ يَغْلُهَا المَهْرُ

وتتحوّل صورة المشبه به عند أبي فراس، لتؤدي دلالة المشبه عند النابلسي، ومن ثمّ تغدو الحسناء رمزاً في الدلالة الصوفية، وفي كلا البيتين إشارة إلى هوان النفس أمام ابتغاء المجد والعلا، ولكنّ المفارقة تتأتّى في المجد الدنيوي ووسيلته الجسد، والمجد الآخروي ووسيلته الروح. ويقول في القصيدة نفسها مضمّناً أيضاً[18]:

وأودعَـتِ الأشـياءَ سـرَّ وجـودِهـا ولابـدَّ يـومـاً أن تُـردَّ الـوَدائـعُ

فقد ضمّن الحكمة من بيت لبيد بن أبي ربيعة العامري[19]:[الطويل]

ومـا الـمـالُ والأهـلـونَ إلّا وديـعـةٌ ولابـدَّ يـومـاً أن تُـردَّ الـوَدائـعُ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

فقصر (لبيد) الوديعة على المال والأهل، لتكون دلالتها جزئية، ولكنّ النابلسي، بتضمينه هذه الحكمة، أضفى عليها معنى صوفياً، فجعلها تكتسب دلالة كلية؛ لتشمل الوديعة كلّ ما هو موجود في هذا الكون، وليغدو الوجود بأكمله وجوداً معاراً مردّه إلى خالقه [20]. وبذلك اتّخذ التضمين في شعر النابلسي منحى توظيفياً، كان له أثره في التعبير عن المضمون العقدي من جانب، وأدّى إلى تحقيق نوع من التداخل النصّي مع الشعر القديم من جانب آخر.

وهكذا اتّخذت تلك التشكيلات البديعية المعنوية منحى خاصّاً في الشعر الصوفي، تبدّى في الإسهام في رفد الجانب العقدي عند النابلسي ودعمه وتوضيحه، ولو أدّى ذلك إلى اتّخاذ هذا الجانب الفني من ألوان البديع منحى توظيفياً في شعره.

2 . التشكيل البديعي والإيقاع الموسيقي:

يتبدّى ذلك في المحسنات اللفظية التي تؤدّي دورها في إكساب البيت نوعاً من الإيقاع الداخلي؛ إذ يكون ثمّة تقارب أو توافق في المقاطع الصوتية للكلمات، ولاسيّما أنّ "الكلمات أصوات، ودلالة الأصوات موسيقية إيحائية قبل أن تكون تعبيرية وصفية."[21] ويأتي في مقدّمتها **التصريع**، ويتبدّى في تقفية العروض تقفيةَ الضرب، وأكثر ما يتحقق في البيت الأول.[22] وقد كان هذا اللون البديعي دليلاً على مطلع القصيدة، وقلّما يتحقق في بيت آخر، ومنه قول النابلسي في مطلع مقطوعة[23]: [الرمل]

قُـضِـيَ الأَمْـرُ وَجَـفَّ الـقَـلَـمُ وَبَـدَتْ نَـارُ الـحِـمَـى وَالـعَـلَـمُ
وَنَـزَلْـنَـا غَـرْبَ وَادي سَـلَـمِوَا حـتَـوانَـا ضَـالُـهُـمْ وَالـسَّـلَـمُ

ولكنّ التصريع يتّخذ منحى جديداً في إطار التخميس، وتتجلّى طريقته "بأن يأخذ الناظم بيتاً لسواه، فينظم ثلاثة أشطر ملائمة في الوزن والقافية صدرَ ذلك البيت، جاعلاً إيّاها قبله."[24] وقد أكثر النابلسي من هذا الفنّ وأبدع فيه، ومن ذلك قوله[25]:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

إنّ قَـوماً لـم يَـرَوا حَـالَتِي لَـمَّـا سَـرَوا
وعِظَامِي قَـد بَرَوا لَيْتَ شِعْري هَـلْ دَرَوا
أيَّ قَـلْـبٍ مَلَكُوا
قَد جَرَى لي مَا جَرَى بَعْـدَهَـم بَيْـنَ الـوَرَى
آه مَـنْ لِـي لَـو أَرَى وفُــؤادِي لَـو دَرَى
أيَّ شِـعْـبٍ سَـلَكُوا

وهنا يصير لزاماً أن يتحقق التصريع مجدّداً في كل بيت، وذلك لما يتطلبه هذا النوع من النظم، من التزام روي الشطر الأول من الأبيات المختارة، وبناء ثلاثة أشطر وفقاً لرويّها، ليسهم التصريع في تحقيق إيقاع موسيقي، عن طريق تكرار المقاطع الصوتية في نهاية كلّ شطر.

ويتأتّى الإيقاع الداخلي أيضاً من **الترصيع** الذي يحقّق توازناً بين المقاطع الصوتية على مستوى التركيب، و" هو أن تكون كلّ لفظة من ألفاظ الفصل الأول، مساوية لكلّ لفظة من ألفاظ الفصل الثاني، في الوزن والقافية."[26] ومنه قول النابلسي[27]:

رَفَعْنَـا إِلَى أَوْجِ الـعَلاءِ رُؤُوسَنَا ورُضْنَا عَلَى حُكْمِ الغَرَامِ نُفُوسَنَا
ولِلْغَيْرِ لَمْ نَحْتَجْ بِهِ أنْ يَسُوسَنَا أَيَا رَبَّـةَ الأَلْـحَانِ دِيـرِي كُؤُوسَنَا
عَلَى مَنْ لَهُمْ في الحُبِّ أَوْفَرُ مَنْصِبِ

يلاحظ التوازن المتحقق بين ألفاظ الشطرين الأول والثاني: (رفعنا ـ رضنا)، (إلى ـ على)، (أوج ـ حكم)، (العلاء ـ الغرام)، (رؤوسنا ـ نفوسنا) ، ومن ذلك أيضاً [28]:

أَسْمُـو بِأَسْـرَارٍ لَكُمْ مَكْتُـومَةٍ مَا بَـيْـنَ أَسْـتَارٍ لَـنَـا مَـعْلُومَةٍ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

كَمْ فِي الوَرَى مِنْ حَالَةٍ مَرْسُومَةٍ أَضْحَى الزَّمَانُ كَحُلَّةٍ مَرْقُومَةٍ

تَزْهُو ونَحْنُ لَهَا الطِّرَازُ المُذَهَّبُ

فثمة تقارب بين وحدات الشطرين الأول والثاني (أسرار لكم مكتومة) و(أستار لنا معلومة)، ومن ثمّ فإنّ التوافق الصرفي نجم عنه توافق صوتي، ليتحقق هذا النوع من التقابل اللفظي بين الوحدات، ويحيل إلى لون بديعي آخر، وهو **الجناس**[29]، فيكون لذلك أثره في إضفاء مسحة بلاغية وجمالية، وقد أكثر النابلسي من هذا اللون البديعي في شعره، ولاسيّما في المواليا. ولعلّ الفارق بين نوعيه يؤدي إلى كثرة الجناس الناقص، على حين أنّ الجناس التام يكون أقلّ توظيفاً، وذلك لدّقته وما يتطلّبه من ثقافة لغوية، ولكن على الرغم من ذلك، فقد برع النابلسي فيه، وأكثر ما تجلّت براعته في المواليا الآتي [30]:

نُوحي لهم يَـا مُقْلَـتي نُوحي والـدّمعُ طُوفانٌ هلْ منه نجا نـوحي؟

يا من إذا أبطؤوا جِئْنا لهم نوحي لأنـبـياءِ المحبّةِ لم نزلْ نـوحي

فقد وردت كلمة (نوحي) بمعنى مختلف في كل شطر، وتكررت في الشطر الأول بالمعنى نفسه للتأكيد اللفظي، فكانت بمعنى النواح، وفي الشطر الثاني اسم النبي (نوح) عليه الصلاة والسلام، وفي الشطر الثالث (نوحي؛ أي نسرع) ليتحقق الطباق في الشطر نفسه مع الفعل (أبطؤوا)، وفي الشطر الرابع بمعنى الوحي. ويدخل في الجناس التام قوله[31]:[الطويل]

ألا أيّها الحادي لِذاكَ الحِمَى سِرْ بي فأهلُ الهوى قومي وجيرانُه سِرْبي

ففي الشطر الأول (سر بي) تتكوّن من فعل الأمر (سرْ) مع الجار والمجرور (بي)، وفي الشطر الثاني من (السِّرْب). ومن ثمّ فإنّ الإيقاع الداخلي المتحقق من الجناس التام، يكون بتمييز المعنى بين الكلمتين المتفقتين لفظاً، لإثبات الفارق بينهما، على حين أنّ اللفظ وحده كافٍ لتحقيق الإيقاع في الجناس الناقص، ومثاله قوله[32]: [الوافر]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

وألْـحَـاظٌ بألفَاظٍ تُـنادي دَمُ العُشَّاقِ في الدُّنيَا مُباحُ

فالجناس واضح بين لفظتي (ألحاظ، وألفاظ)، والشواهد على ذلك كثيرة،؛ إذ إنّ الجناس الناقص مجاله أرحب، ويحقّق إيقاعاً صوتياً بين الألفاظ. وقد تنسجم الألوان البديعية ليتحقّق التصريع والجناس في آنٍ معاً، في مطالع الأبيات، ومثال ذلك قوله مفتتحاً[33]:[مجزوء الكامل]

ظَـهَـرَ الـوُجـودُ مِـنَ العَـدَمْ وبـدا الحُـدُوثُ مِـن القِـدَمْ

فثمّة جناس بين لفظتي (العدم، والقدم)، وفي الوقت نفسه يتحقّق بهما التصريع، لأنّهما في مطلع القصيدة. وتتكثّف الألوان البديعية عندما يتبدّى التضاد بين (الوجود والعدم) و(الحدوث والعدم) في البيت ذاته، لتتضامّ المحسنات اللفظية إلى جانب المحسنات المعنوية في التعبير عن المضمون العقدي، بل تتقوّى أواصر الاتّصال بينهما في لون بديعي آخر، يسمّى **العكس والتبديل**؛ وهو أن يُقدَّم في الكلام جزء ثمّ يُؤخّر، ويكون بين جملتين، أو بين لفظين [34]. وقد كثر هذا اللون في شعر النابلسي، وكان له أهميته في التعبير عن المنحى العقدي أيضاً، ومن ذلك قوله[35]:[الكامل]

هي وحدةٌ في كثرةٍ، هي كَثرةٌ في وحدةٍ تُتلى بها الآياتُ
وحقيقةٌ فيها الحقائقُ كلُّها أضدادُها جمعٌ بهَا وشَتَاتُ

واضح أنّ العبارة الأولى (هي وحدة في كثرة) تحقق التضاد وتستدعي، في الوقت ذاته، العبارة الثانية (هي كثرة في وحدة)، وذلك للتعبير عن أنّ الذات الإلهية واحدة في ذاتها وجوهرها، ومتكثرة في صفاتها وتجلياتها، ومن ثمّ تتحقق بين البنيتين المقابلة التي أضفت نوعاً من الإيقاع التكراري بين الوحدات، نجم عنه العكس والتبديل، ليتضح من خلال هذه البنية العكسية أنّها " بنية تجسد في عمقها ازدواج الركيزة الإنتاجية على نحو قريب من بنية التقابل."[36] بل يمكن القول هنا إنّ البنية العكسية تندغم في البنية التقابلية، كما في قول النابلسي أيضاً مشيراً إلى ثنائية الظاهر والباطن[37]:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

[الطويل]

فَيَا ظَاهِراً في خَلْقِهِ وهْوَ بَاطِنٌ ويَا باطِناً في أمْرِهِ وهْوَ ظَاهِرُ

تَجَلّيْتَ لي في كُلِّ شَيءٍ ولَمْ أكُنْ سِواكَ فمَنظُورٌ كَمَا أنتَ نَاظِرُ

ويقترب منه قوله[38]: [مجزوء الرمل]

فَبُطُونٌ مِنْ ظُهُورٍ وَظُهُورٌ مِنْ بُطُونْ

وهنا تتعزّز العلاقة التقابلية عن طريق العكس والتبديل بين طرفي التركيب، ويمكن توضيح ذلك في الجدول الآتي:

جدول رقم (2)يبين العلاقة التقابلية والعكسية بين الظاهر والباطن:

الشطر الأول	الشطر الثاني
فيا ظاهراً	و يا باطناً
هو باطن	هو ظاهر

يمكن ملاحظة أنّ القراءتين الأفقية والعمودية للجدول، تكشفان عن العلاقتين التقابلية والعكسية بين الوحدات في آنٍ معاً. وإذا كانت العلاقة العكسية (التبادلية) تضفي نوعاً من الإيقاع التكراري، فإنّها في الوقت ذاته تنسجم مع العلاقة التقابلية وتتضايف معها، على نحوٍ يكشف عن المنحى العقدي عند النابلسي ويعزّزه أيضاً، ولاسيّما أنّ ثنائية الظاهر/ والباطن تعدّ من دعائم

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

التجربة الصوفية بعامّة، ولها دلالتها عند أنصار وحدة الوجود بخاصّة. ومؤدّى ذلك أنّ كلّ مظهر من مظاهر هذا الكون وراءه معنى باطن؛ إذ إنّه آية من آيات الله وتجلٍّ من تجلياته.

ولا يخفى ما في العكس والتبديل من تبادل الأدوار بين الضمائر، بالمعنى الدلالي، ليتحقّق الإيقاع الداخلي بينها، ويتجلّى ذلك في قول النابلسي بلغة رمزية[39]: [الطويل]

وأحبَبْتُها بلْ تلْكَ كانَتْ هي الّتي قَديمَاً أحبَّتْني فَزالَ التّقَاطُعُ

تتحوّل دلالة ضمير المتكلم من الفاعلية (تاء المتكلم/ الفاعل) في الفعل (أحببتُها)، إلى المفعولية (ياء المتكلم) في الفعل (أحبّتني)، ويقابل ذلك تحوّل دلالة ضمير الغائب من المفعولية الظاهرة في الفعل الأول (أحببتُها)، إلى الفاعلية المستترة في الفعل الثاني (أحبّتني)، وفي كلا الفعلين يؤدّي هذا الضمير دلالة الغياب أمام حضور ضمير المتكلم، لتتبدّى أبعاد العلاقة بين الضميرين وفقاً لثنائية الحضور/ والغياب، والتجلّي/ والخفاء، ويتعزّز ذلك بقوله في القصيدة ذاتها[40]:

ظَهَرْنا بهَا لا بَلْ بنا ظَهَرَتْ وقدْ تَسَاوَتْ دَوَانٍ هَهُنَا وشَواسِعُ

وهنا تزول الآنات وتلغى المسافات في فناء شهودي، يتحقّق عن طريقه الاتّصال، وقد كان للعكس والتبديل أثره في التعبير عن تلاشي الهوّة الفاصلة بين الأنا والآخر. ومن ثمّ حقّق هذا اللون انسجاماً بين الإيقاع الموسيقي والمنحى العقدي، ليتضامّ مع تقنيات التشكيل البديعي الأخرى على اختلافها في الاستجابة للطابع العقدي الذي اتّسم به شعر النابلسي بعامّة.

الخاتمة:

يمكن القول: أسهمت التشكيلات البديعية في الكشف عن الطابع العقدي في شعر عبد الغني النابلسي، فكان لها أثرها في إرسائه ودعمه من جهة، وأضفت عليه حِلْية فنية بلاغية وإيقاعية من جهة أخرى. وبناء على ذلك، فقد اتّخذت تلك التشكيلات في شعره منحى توظيفياً، تبدّى في استجابة الشاعر لعقيدته من جانب، وفي انقياد الجانب الفني للفكري ورفده له من جانب آخر.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

الهوامش:

* هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي؛ شاعر، عالم بالدين والأدب، مكثر من التصنيف، متصوّف، ولد في دمشق عام (1050هـ) ونشأ فيها، وتنقّل بين عدد من الدول العربية منها بغداد، وفلسطين، ولبنان، ومصر، والحجاز، ولكنّه عاد إلى دمشق، واستقرّ فيها حتّى وفاته عام (1143هـ)، ترك مصنفات كثيرة ومتنوعة في الفقه والتصوف والأدب. يُنظر: الزركلي، خير الدين. الأعلام، 32/4 . دار العلم للملايين، بيروت، ط1998/13م.

** تسمّى وحدة الوجود في المصطلح الصوفي: حضرة الوجود، وحضرة الجمع، وتعني وجود الحق ذاته بذاته، فالكلّ به موجود، وهو بذاته موجود، وما سواه أعيان معدومة، وهي موجودة به، ومعدومة بذاتها، وليس ثمّة مقارنة بينهما. ينظر: الكاشاني، عبد الرزاق. معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط1/ 1992م، ص 74.

*** يشمل التضاد الطباق بنوعيه: الإيجابي ويكون بالجمع بين المتضادين، والسلبي وهو أن يؤتى بالكلمة ذاتها مثبتة تارة ومنفية تارة أخرى.ينظر: القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: بهيج غزاوي:317 .319دار إحياء العلوم، بيروت، ط1988/1م. ويشمل التضاد أيضاً المقابلة، وهي "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثمّ بما يقابل كلّاً على الترتيب."وهبة، والمهندس. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: 378مكتبة لبنان، بيروت، ط2/ 1984م.

(1) ينظر التناسب بين المعاني عند ابن سنان الخفاجي. سرّ الفصاحة، تحقيق: علي فوده. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2/ 1994م، ص 188 وما بعد. وضياء الدين بن الأثير. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ص 3/ 143 وما بعد. وحازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3/ 1986م، ص 44 . 48 وما بعد. وينظر: المطابقة عند عبد الله بن المعتز. البديع، تحقيق: كراتشقوفسكي، مكتبة المثنى، بغداد، ط2/ 1979م، ص: 36 وما بعد. والخطيب القزويني. الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: بهيج الغزاوي، ص 317 وما بعد. وينظر: التكافؤ عند قدامة بن جعفر. نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3/ 1978م، ص143 وما بعد.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

(2) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، تحقيق: محمد عبد الخالق زناتي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2001/1م، ص546.

**** أساس الوحدة المطلقة عند ابن سبعين هو التمييز بين ما هو وجود حقيقي وما هو وجود وهمي. والوجود المطلق هو الله، ولا موجود على الإطلاق ولا واحد على الحقيقة إلا هو. ويجعل ابن سبعين كلّ ما في الوجود متعلّقاً بالذّات لا بالصفات. ينظر: شرف، محمّد ياسر. فلسفة الوحدة المطلقة عند ابن سبعين، المركز العربي، بيروت، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981م، ص ص 112 . 115.

(3) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص214.

(4) السابق، ص 546

(5) السابقً، ص 314.

(6) السابق، ص295 .

(7) ينظر الاقتباس: وهبة (مجدي)، والمهندس(كامل). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 56.

(8) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص511.

(9) السابق، ص71.

(10) السابق، ص 557.

(11) السابق، ص329.

(12) السابق،ص 342.

(13) الإمام البخاري: صحيح البخاري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط2004/1م، ص759. وفي روايتين أيضاً: " أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعرُ كلمةُ لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ، وكادَ أميّةَ بن أبي الصّلْتِ أن يُسلم." صحيح البخاري، صص 450 . 724

(14) ابن عربي: الفتوحات المكية، تحقيق: عثمان حقي، وإبراهيم مدكور،: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1985م، ص 169/6وكذلك: 404/10.

(15) يكون التضمين في تضمين الشاعر شطراً أو بيتاً من شعر غيره. ينظر: وهبة، والمهندس معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 108.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

(16) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، تحقيق: محمد زناتي، وقد وردت في هذه النسخة كلمة (اللوامع) بدلاً من (اللواسع)، فتمّ الاعتماد على نسخة دار الجيل: 297/1 بيروت، د.ت، ص313.

(17) ديوان أبي فراس الحمداني، شرح خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، ط1994/2م، ص165.

(18) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص 314.

(19) ديوان لبيد بن أبي ربيعة العامري. تحقيق: إحسان عباس، التراث العربي، الكويت، 1962م، ص170.

(20) يرى عبد الكريم الجيلي أنّ سائر الموجودات أو الممكنات ينسب إليها الوجود من ناحية التحاقها بالموجد عزّ وجلّ، ومن ثمّ، فهي موجودة بحكم العارية التي أعار الله تعالى بها الممكنات صفة الوجود. ووفقاً لذلك، فإنّ وجود الحق يلتحق به وجود الخلق أو الممكنات، وما نسبة وجود الخلق إلى الوجود الحق إلّا كنسبة خيال الشيء إلى الشيء. ينظر: زيدان، يوسف: عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م، ص 151.

(21) هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1987م، ص 446.

(22) ينظر: القزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: بهيج الغزاوي، ص 365 .

(23) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص 446.

(24) عبد النور، جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2/ 1984م، ص 64.

(25) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص 397، والبيتان لابن عربي وهما:

لَيْتَ شِعْري هَلْ دَرَواأيَّ قَـلْبٍ مَـلَـكُـوا
وفُــؤادِي لَــو دَرَى أيَّ شِعْبٍ سَلَكُوا . ترجمان الأشواق، لندن، 1911م، ص 14.

(26) ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة: 277/1

(27) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص 60.والبيت الأصلي مجهول القائل.

(28) السابق، ص 65. والبيت الأصلي لعبد القادر الجيلاني.

(29) الجناس هو" تشابه اللفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى. وهو إمّا تامّ؛ إن اتّفق اللفظان في عدد الحروف و نوعها وشكلها (هيئتها) وترتيبها، وإمّا غير تامّ؛ إن اختلف اللفظان في واحد من هذه الأربعة." وهبة، والمهندس. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 138.

(30) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص 141.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405

(31) السابق، ص55.
(32) السابق، ص 126.
(33) السابق، ص463.
(34) ينظر: القزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: بهيج غزاوي، ص 329 .
(35) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص 107 .
(36) عبد المطلب، محمد: البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، ط1، 1997م. ص378.
(37) ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، ص214.
(38) السابق، ص 501.
(39) السابق، ص313 .
(40) السابق، ص314.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1405